"القتال بالكلمات".. عن دور المثقفين في معركة التحرير الفلسطيني

كتبه محمد الكرد | 8 سبتمبر 2023,

ترجمة وتحرير: نون بوست

في المقابلات وفي حرم الجامعات، كثيرا ما أُسأل عن الدور الذي أعتقد أن الأدب يلعبه في حركة التحرير الفلسطينية. ومع أن السؤال في حد ذاته ليس استفزازيًا، إلا أنه عادة ما يرد بهذه الصيغة: ما هو دور الأدب؟ ومن يخدُم في العالم الناطق باللغة الإنجليزية في ردهات الفنادق الفخمة وقاعات رابطة اللبلاب بعيدًا عن الأسلحة المؤقتة في مخيمات اللاجئين؟ من الصعب قول ذلك، من الصعب أن نتصور ما يمكن أن تفعله القصيدة أمام فوهة البندقية.

عادة ما أجيب برواية حكايتي المعتادة: كتب راشد حسين قصيدته الساخرة "الله لاجئ"، احتجاجًا على "قانون الأراضي" الإسرائيلي لسنة 1960 الذي يحظر بيع أو نقل ملكية الأراضي "المملوكة للدولة" (كما هو الحال في 93 بالمئة) جميع الأراضي التي تم الاستيلاء عليها في سنة 1948)، و"قانون أملاك الغائبين" لسنة 1950 الذي سمح للحكومة الإسرائيلية بالاستيلاء على ممتلكات اللاجئين الفلسطينيين الذين سُلبت ممتلكاتهم خلال النكبة. ولم توثق قصيدته سرقة الأراضي من قبل الصهاينة فحسب، بل ساعدت في تحفيز المزارعين وملاك الأراضي على تنفيذ إضراب عام.

دعني أقدم الإجابات السهلة التي تتمحور حول حقيقة أن الفنانين يرفعون الوعي عالميًا ويجحدون الجماهير محليًا. لكن في بعض الأحيان، أميل إلى قول خلاف ذلك. أنا أميل إلى قول إن الأمر كله مربك ومضلل، وأنه بعد كل القصائد والمقالات والخطابات، لم يتغيّر الوضع الراهن قيد أنملة.

لقد أصبح من الصعب بشكل متزايد مقاومة هذا الإغراء. كلما تم تكريمي بالصفات والعبارات المبتذلة في كتاباتي، تذكرت أن مثل هذه التكريمات متضخّمة ولا معنى لها، خاصة وأن الآخرين لا يتلقون مثل هذا التقدير بعد أن عانوا – وما زالوا يعانون – خلف القضبان على أسرّة المستشفيات بعد أن ضحّوا بأطرافهم أو حياتهم حتى، وبالأخص أن مشاعر "الوجود هو المقاومة" السطحية لا تزال رائجة (لا ينبغي الخلط بين هذا وبين منظمة الوجود هو المقاومة).

لا تخطئوا، فتمسّك محفوظة اشتية بأشجار زيتونها في وجه الجرافات مقاومة. ومواجهة الفلسطينيين الطرد في سلوان والشيخ جراح ومسافر يطا، والإبادة في مخيمات اللاجئين في لبنان، وغيرها، مقاومة. ولكن ماذا عن أولئك الذين لديهم المزيد من القدرة على التحرك والوصول؟ كيف يمكن لمساهماتنا أن تتجاوز إيماءات الهوية الرمزية؟ مرة أخرى، من الصعب أن نتخيل ما يمكن أن تفعله القصيدة أمام فوهة البندقية.

> أحد هذه الأسماء هو بالطبع غسان كنفاني، فهم بشكل وثيق كيف لم يتوقف أعداؤنا أبدًا عن تسليح الفنون باعتبارها "جزءًا حاسمًا وغير قابل للتجزئة من حركتهم"

الشعور بالذنب هو الرد الواضح هنا، لكن الشعور بالذنب كامن. إنه أكثر إنتاجية من الحديث عن الالتزام. وعلى وجه الخصوص، الالتزام المرتبط بكونهم فنانين ومنتجي المعرفة في المجال العام. كثيرا ما أتذكر كلمات الراحل باسل الأعرج: "إذا كنت تريد أن تكون مثقفا، عليك أن تكون منخرطا" – على الرغم من أنني أميل إلى القول بأن الكلمة العربية التي تعني "منخرط"، "مشتبك"، تحمل دلالات أكثر نضالية – فإنه "إذا كنت لا ترغب في الانخراط، إذا كنت لا ترغب في مواجهة القمع، فإن دورك كمفكر لا معنى له".

خلال الأشهر القليلة الماضية، كنت أجرّ أصدقائي إلى نقاشات متوترة حول معضلتي. ما هو دور الإنتاج الثقافي في النضال التحرري، في نضالنا التحرري على وجه التحديد؟ أخبرني أحد أصدقائي، وهو عضو في حركة الشباب الفلسطيني أن "الفن لا يمكن أن يكون موجودا من أجل الفن"، وأنه يجب أن يخدم هدفًا أكبر في النضال. وقال صديق آخر – وهو مغني – فإن الفنانين يكونون أكثر فعالية عندما يتعاملون مع الروايات الفردية بدلاً من ما أسماه "الشعارات المجردة للقضية". وأشار آخرون إلى بعض الشعراء وكبار الكتاب الذين صاغوا الخطاب الذي أردده اليوم، وتساءلوا كيف يمكن أن أكون ساخرًا وببغاءً في نفس الوقت.

أحد هذه الأسماء هو بالطبع غسان كنفاني، الذي لم يجسد فقط ما يعنيه أن تكون "مثقفًا

منخرطًا"، ولكنه فهم أيضًا بشكل وثيق كيف لم يتوقف أعداؤنا أبدًا عن تسليح الفنون باعتبارها "جزءًا حاسمًا وغير قابل للتجزئة من حركتهم". وفي كتابه "عن الأدب الصهيوني" الصادر سنة 1967 الذي تُرجم مؤخرًا إلى الإنجليزية، كتب غسان أن "الصهيونية السياسية استخدمت الأدب على نطاق واسع ليس فقط في جهودها الدعائية وإنما أيضًا في حملاتها السياسية والعسكرية"

ومع أن جميع أصدقائي يبدو أنهم يعتقدون أن الفن والثقافة يلعبان دورًا جوهريًا – جميعهم باستثناء صديق واحد يؤمن بالسلاح ولا شيء غير السلاح – إلا أن أحداً منهم لم يتفق على طبيعة هذا الدور أو كيف يجب أن يظهر بشكل منهجي. ولم تؤد مناقشاتنا إلى أي توافق في الآراء. وكانت هذه الأسئلة محبطة وغير منشطة لأنه بعيدا عن الإجابات السهلة (الوعي، التحفيز، وما إلى ذلك)، سادت أسئلة المتابعة العنيدة: هل ينبغي للفنانين أن يكونوا مدينين للمؤسسات الوطنية أو الثقافية (أي مؤسسات؟) التي تحكم ممارساتهم الفنية؟

أدرك أنني لا أملك الخبرة اللازمة لحل الأسئلة المذكورة أعلاه – والتي طرحها كثيرون قبلي عدة مرات – ولا أحاول القيام بذلك في هذا المقال القصير، لكنني مهتم فقط بفكرة التزام الفنان، وكيف يمكن تسخير هذا الالتزام.

عندما التقيت جيريمي كوربين في نيسان/أبريل الماضي في لندن، أردت منه أن يتحدث معي حول العقوبات، ولا شيء غير العقوبات، وبدلًا من ذلك فوجئت عندما سمعته يتحدث عن وعود جيلي، الشباب الفلسطينيين الذين يغنون ويكتبون القصائد ويصنعون الأفلام، والذين بدا له أنهم هم المستقبل الحتمي للنضال الفلسطيني.

لقد ألمح إلى أن هناك صفة تبشيرية متأصلة بالطبيعة في الإنتاج الثقافي مرددًا، ربما عن غير قصد، فكرة أن "الانتفاضة الثالثة ستكون ثقافية"، وهو اقتباس غالبًا ما يُنسب إلى جوليانو مير خميس الذي أسس مسرح الحرية في جنين مع كاسر القيد والقيادي السابق في كتائب شهداء الأقصى زكريا الزبيدي ونشطاء آخرين. أجد أن هذا الرأي رومانسي واختزالي للأسباب التي ذكرتها سابقًا، ومع ذلك، لو كان هناك ملاك في الرخام بالفعل، فلن ينحت نفسه دون مساعدة، لذا فإن ما يسمى بالانتفاضة الثقافية لن تأتي بشكل عشوائي، وليس بدون بنية تحتية ضخمة ودعم تنظيمي هائل.

الالتزام، بالنسبة لي، هو العنصر الذي ينوب عن المؤسسة. وباعتباري كاتبًا وصاحب منصة عامة، يجب أن أحصل على الأقل على تعليم سياسي، ويفضل أن أطلب المشورة السياسية إذا كنت سأتعامل مع فلسطين في عملي، لا أقترح هنا أن مساهماتنا يجب أن تكون بالضرورة تعليمية أو نضالية، كما أنني لا أدعو إلى إشراف تنظمه الحكومة في دولتنا الفلسطينية الحبيبة المختلة وظيفيًا (لم أكن أدرك وجود وزارة إعلام في رام الله حتى مقتل شيرين أبو عاقلة)، لكنني أقترح ببساطة أن يتم التعامل بحذر مع وضعنا – الذي كان محيرًا بسبب عقود من التشويش والفروق الدقيقة الملفقة.

> ندرة تمثيل فلسطين التي تجعل مسلسلًا مثل مو أو فيلمًا مثل فرحة ملحوظين، تعني أن المنظمات الصهيونية تتكالب في أي وقت تكون فيه هناك أغنية جديدة تسلط الضوء فقط على المحنة الفلسطينية

وصفت إحدى الصديقات هذا الموقف بأنه "غير عادل"، وقد شاركتها في ذلك فيما يتعلق بشكل الانتقادات الموجهة إلى مسلسل "مو" عند إصداره على نتفليكس (سأمتنع عن التوسع من أجل الطول)؛ حيث قالت: "ليس من العدل أن نتوقع من برنامج تلفزيوني واحد أن يحمل فلسطين على ظهره"، وأنا أوافق على ذلك: إن تحميل فنانينا مسؤوليات لا يتحملها فنانون آخرون أمر غير عادل، لكن هذا ما هو عليه الأمر، فمن النادر جدًا أن ترى الشعب الفلسطيني في التيار السائد، خاصة في العالم الناطق باللغة الإنجليزية، لدرجة أن مسلسلًا مثل مو ربما يكون أول تفاعل للمشاهد الأمريكي العادي مع محنتنا – على الأقل خارج ظهورنا الشرير على قناة "سي إن إن" أو نيويورك تايمز. ومو، بالطبع، مجرد مثال، ومن وجهة نظري، ليس هناك الكثير غيره.

لا يفوتني أنني أخاطر باللجوء إلى الشعبوية باستخدام لغة مثل "الولاء للشارع الفلسطيني"، أو حتى خطر الاشتراك في نفس سياسات الهوية التي أشجبها عادة، وهي سياسات الهوية ذاتها التي تسمح للمطبوعات الصهيونية بالتمتع بمصداقية متزايدة بعد أن استأجرت كُتّابًا فلسطينيين مختزلين لترويج دعايتها.

لم تكن الهوية الفلسطينية لمو عامر هي ما حفزني على التفكير بشكل نقدي في برنامجه التلفزيوني (أنا لا أضغط على الدي جي الفلسطيني الشهير خالد لتسجيل ألبوم يحتفل بعرين الأسود)، ولكن لأن فلسطين تشكل جزءً كبيراً من تصميم المسلسل التلفزيوني، فالالتزام إذن لا يقع على عاتق الفنان أو الفنانين الفلسطينيين حصريًا، بل تجاه الفن نفسه، إذا كانت فلسطين هي النقطة المحورية المختارة.

إن ندرة تمثيل فلسطين التي تجعل مسلسلًا مثل مو أو فيلمًا مثل فرحة ملحوظين، تعني أن المنظمات الصهيونية من المرجح أن تتكالب في أي وقت تكون فيه هناك أغنية جديدة أو فيلم أو دورة جامعية تسلط الضوء فقط على المحنة الفلسطينية، ناهيك عن التعاطف معها. لا شيء يفلت من ردّ الفعل الصهيوني، لا كتب الأطفال الأكثر وداعة، ولا اللوحات الخزفية المطلية التي رسمها أطفال غزة؛ ولا حتى الأخبار المتعاطفة مع فلسطين التي لا تزال تستشهد بتصريحات المسؤولين الإسرائيليين وكأن عقيدتهم الراسخة هي تجنب الجدل. ومع أخذ ذلك بعين الاعتبار، كيف يمكن لشخص يتمتع بضمير حيّ أن يقدّم مراجعة نقدية لشيء يتعرض بالفعل للكثير من الهجوم؟

لكن حمايتنا المشروعة للفن الفلسطيني – بالإضافة إلى شعور "الوجود هو المقاومة" العصري – تعني أن كل إنتاجنا الثقافي الناطق باللغة الإنجليزية في العالم معرض لخطر المعاملة نفسها، يتم جمع الراديكالي مع الليبرالي، والصريح مع شديد الإقناع، ليصبح معيار جودة الفن الفلسطيني ببساطة هويته، ولكن من دون النقد – النقد الهادف، وليس النقد الذي يبحث عن الألغام في كل أرض – لا يمكن أن يكون هناك نمو، أو بعبارة أخرى، من دون نقد أو تحدي، لا يمكن الحفاظ على العلاقة الجدلية بين الفنان و"الشارع" أو استجوابها، ويصبح دور الفنان احتفاليًا فقط.

> عليك أن تخدم سنتين أو ثلاث سنوات في جيش الكلمات. عليك أن تتعلم كيفية القتال في المعركة السياسية، التي هي أكثر أهمية من المعركة العسكرية...

قد يجادل البعض بأنني أبالغ في القول بأن الالتزام المذكور لا يقع على عاتق الفنانين الفلسطينيين، بل على عاتق أي فنان يختار تمثيل فلسطين في أعماله، ولكن حتى بهذه الدلالات تظل الحقيقة أن العديد من الفلسطينيين يجدون أنفسهم مضطرين إلى تمثيل مجتمعاتهم بغض النظر عما إذا كانت هذه مسؤوليتهم أم لا.

ساستنا غير أكفاء ومتهاونون، بل ومتواطئون، وقد وضعتنا عقود من عدم الاستقرار والعنف الاستعماري والمحو في هذا المأزق المريع. قد يتم تكليف أي فلسطيني، وخاصة الفنان، لاسيما في التيار الرئيسي، بوظيفة المتحدث باسم المجتمع، وفي كثير من الأحيان، يحدث ذلك بين عشية وضحاها، والحقيقة أن هذا ينطبق على كل المجالات تقريبًا وليس الفنون فقط.

وفي حين أننا جميعًا نتعرض للعنصرية بطبيعتنا بسبب الموقع (والتفكك)، إلا أننا لا ننخرط جميعًا في العمل الناشط – كما هو الحال مع كل مجتمع. البعض – إن لم يكن معظمنا – يتم استدعاؤهم إلى الحلبة في مرحلة عشوائية من حياتنا – دائمًا كرد فعل تقريبًا على حالة طوارئ. كنت في الحادية عشرة من عمري عندما وجدت نفسي لأول مرة أقوم بحملة باستخدام لغتي الإنجليزية الركيكة لإنقاذ منزلي في حي الشيخ جراح من المصادرة، بينما كانت رؤى الريماوي قد أنهت لتوها دراسة الطب عندما انغمست في عالم المناصرة والمطالبة بالعدالة لشقيقيها الشهيدين جواد وظافر. لقد تحول كلانا إلى وزارات إعلامية من شخص واحد، نسعى جاهدين لخلق أزمة حول ما تتعامل معه الدورة الإعلامية عادة على أنه حدث يومي. ولسنا حالات فريدة ولا نادرة والأمثلة على ذلك لا تحصى ولا تعد.

عندما أتحدث عن التطهير العرقي في منزلي والقدس الكبرى على شاشات التلفزيون، فإنني لا أعتبر نفسي سفيرًا للشعب الفلسطيني ولم يتم انتخابي لأكون سفيرًا (وبكل إنصاف، لم تكن السلطة الفلسطينية أيضًا كذلك). لكن في تلك اللحظة، أنا أمثل الشعب الفلسطيني – وذلك ضد رغباتي وربما حتى ضد رغباتهم. لقد قلت لنفسي كثيرًا إن حل هذا التوتر ممكن من خلال تحويل الذات إلى وعاء للجماعة. وبقدر ما قد يكون الأمر مؤسفًا وغير عادل، يجب أن أعد نفسي له. وهذا هو الالتزام، كما اعتقدت دائمًا.

لكن ليس الجميع ملزمين باتخاذ هذا القرار. فقد أوضح مغني راب شهير من القدس، في مقابلة أجريت معه مؤخرًا، سبب إصداره لأسطوانة غير سياسية بعد النجاح الهائل لأغنيته التي أصدرها في عام 2021، "إن آن"، التي تناسب بسهولة هذا النوع من الموسيقى الثورية؛ قائلا: "أستطيع أن أراهن على أنني لن أحرر الوطن بالراب". لم يرفض الإلتزام فحسب، بل سخر من هذا الإلتزام. أنا أحترم هذا الموقف، لا سيما أنه يعترف بالقيود المفروضة على أي شكل فني معين يعمل بشكل مستقل، خارج حدود حركة منظمة.

لا أقول إن الفن والثقافة سيحلان محل البندقية، بل أقول إنه لا ينبغي ترك مجال دون أن نطرقه.

في صباح أحد الأيام، في غرفة معيشة أحد الأصدقاء في حيفا، ربت جار صديقي – الذي يصادف أنه فنان – على كتفي بينما كنت أجيب على رسائل البريد الإلكتروني ("اللعب على هاتفي" على حد تعبيره) قائلا: "هل تريد أن تعرف كيف يمكننا أن نصبح أكثر شبهاً باليهود؟"، أجبته: "لا". وتابع على أي حال: "كل إسرائيلي يخدم في الجيش لمدة ثلاث سنوات، ثم تفعل مجموعة أخرى نفس الشيء. بينما نحن ليس لدينا ذلك". لقد كان محقا. لا يوجد واجب وطني محدد للفلسطينيين في غياب الجيش. وإذا كانت الثورة ستُبث على شاشات التلفزيون، ألا ينبغي أن تكون أكثر منهجية بعض الشيء؟

ذكرني الاقتراح الذي قدمه جار صديقي الفنان بتصريح مماثل: تحدثت فيه روث ويسي، الأستاذة الفخرية للأدب اليديشي في جامعة هارفارد، إلى "اليهود الأمريكيين" وقالت: "يجب على كل واحد منا أن يخدم لمدة عامين في الجيش والبعض منا خمس سنوات... عليك أن تخدم سنتين أو ثلاث سنوات في جيش الكلمات. عليك أن تتعلم كيفية القتال في المعركة السياسية، التي هي أكثر أهمية في هذه المرحلة من المعركة العسكرية... عليك أن تتعلم كيفية القتال في الجامعات، وكيفية تقديم الحجج".

هناك شيئ ما يتعلق بآراء ويسي الصارخة أخشى أن يتردد صداه. "جيش الكلمات" هو الساحة التي تعيد تشكيل مشاركتنا في النضال على أنها محسوبة، وليست عشوائية ورجعية. أنا لا أقول إن الفن والثقافة سيحلان محل البندقية، بل أقول إنه لا ينبغي ترك مجال دون أن نطرقه.

ورغم مرور 75 عامًا من الأبحاث والإنتاج المعرفي الفلسطيني، ومع أن كل صحفي ودبلوماسي ومشرّع لديه إمكانية الوصول إلى الأدلة المرئية والمادية على الفظائع المرتكبة ضد الشعب الفلسطيني، إلا أنني أعتقد – على الأقل في الوقت الحالي – أنه لم يمر بعد وقت إقناع الفنانين بأنهم يؤثرون على الرأي العام الدولي في العديد من الحالات عبر التاريخ. وهذا صحيح بالتأكيد بالنسبة للصهيونية. إن "المسيرة المنضبطة للأدب الصهيوني على إيقاع الحركة السياسية"، على حد تعبير كنفاني، "حيث تتصاعد من رواية إلى رواية، ومن قصة إلى قصة"، خدم بالتأكيد مشروعه الاستعماري في فلسطين.

لقد أجريت مؤخرًا مقابلة مع الممثلة والكاتبة المسرحية رائدة طه. عندما شاركتها اكتشافي المدمر بأنني إذا وقفت وقرأت قصيدة أمام حاجز قلنديا العسكري، فإنها لن تنهار وتشتعل، استحضرت نفس التصعيد: "[التحرير] هو مسألة تراكمية. وكل ما تم وما يتم القيام به الآن من أجل القضية لن يذهب سدى. إنه تراكم للعديد من الانتصارات الصغيرة التي ستقودنا إلى مكان ما يومًا ما. لا أتفق معك في أن القصيدة أو الأغنية أو المسرحية لن يحرروا؛ فكل هذه الأمور – بالإضافة إلى أشياء أخرى كثيرة – سوف تحرك شيئًا ما على مر السنين. نحن نبني على ما قمنا به منذ سنة 1948، وحتى قبل ذلك". وفي هذا السياق، فإن دور الفنان في حركة التحرر هو نفس دور أي عضو في تلك الحركة. قبول الالتزام بالمشاركة في مواجهة التحديات.

المصدر: موندويس

رابط المقال : https://www.noonpost.com/165943/